

## مآلات التجربة الاسلامية وخيارات الشعب العراقي

2016-08-31 محمد علي جواد تقي

ربما يكون من السهل إصدار حكم الإلغاء على التجربة الاسلامية في إدارة الدولة أو تأسيس نظام حكم في العراق يفي بالشعارات والوعود الكبيرة، بيد ان القضية بحاجة الى دراسات معمقة تبحث في الاسباب والخلفيات، اكثر من حاجتها الى التسرع والتطاول بالاستفادة من أجواء ضبابية تعيق الرؤية الصحيحة وتدفع الى استنتاجات خاطئة، كون هذه التجربة ليست نتاج نظريات فكرية ارتدت ثوب السياسة وخرجت الى الساحة على شكل احزاب سياسية تتمنطق الايديولوجيا وتشهر سلاح الشعارات البراقة التي شهدنا في القرن الماضي كيف انها كانت ترغّب الناس تارةً وترهبهم وتميتهم تارةً أخرى، إنما هي تجربة تعود الى عمق التاريخ الاسلامي وناصيته، وتحديدًا الى تجربة حكم الامام علي، عليه السلام، الذي كتب القدر أن تكون التجربة الاسلامية على يديه في الكوفة، وهي آنذاك كانت عاصمة الدولة الاسلامية، وأكبر حامية للجيش الاسلامي، وهي بدورها استقت نجاحها من أول تجربة حضارية رائدة على يد النبي الأكرم، صلى الله عليه وآله، بمعنى أن القضية اكبر من ان تتحدد في أشخاص مهما بلغوا وادعوا.

### هل نستعين بنظرية المؤامرة؟!

في اواسط القرن الماضي تبلورت رؤية لنظام حكم اسلامي في اوساط شريحة مثقفة وواعية يتصدرها علماء الدين وابناء الحوزة العلمية، فتم تدوين نظريات وافكار نهضوية تدعو الى التغيير والبناء الاجتماعي والسياسي وفق قواعد اسلامية، بيد أن المشكلة كانت في التطبيق العملي على ارض الواقع، فقد واجهت هذه التجربة الفكرية الجديدة - إن صح التعبير- تحديات ماحقة في ساحة سياسية ملتهبة لم تحسب لها حساب المواجهة العنيفة، فكانت النتيجة؛ تضحيات جسيمة وجهود جبارة دون طائل، والسبب الرئيس في ذلك - من جملة اسباب- عدم وجود القاعدة الجماهيرية العريضة المستوعبة لهذه التجربة، فكانت الشريحة المتفاعلة عبارة عن الطبقة المتوسطة التي لم تكن متشكلة آنذاك لتؤدي ذلك الدور المحوري المعروف في الثورات والتحويلات الكبرى، حيث المتعلمين والتجار والمهنيين والمثقفين كانوا الأقلية وسط سيل عارم من عامة الناس الذين كانوا هم

بحاجة لمن ينقذهم من الأمية والحرمان.

يضاف الى ذلك؛ العامل السياسي الداعم لجميع القوى السياسية لمساعدتها على الوصول الى قمة السلطة، فيما كانت الحركة الاسلامية وحيدة في ساحة واسعة، فقد كان الدعم الدولي والاقليمي واضحاً في صعود الاحزاب السياسية في العراق آنذاك.

أما في تاريخ ما بعد 9 نيسان 2003 فان الفرصة التاريخية اقبلت مستبشرة لابناء الحركة الاسلامية بأن تكتب تاريخاً جديداً لها ولتجربتها التي طالما تحدثت عنها في الأدبيات والخطابات طيلة عقود من الزمن، فهل بعد ذلك من مبرر للحديث عن المؤامرة الدولية والاستعمارية...؟!

لنتذكر دائماً الامام علي، عليه السلام، وتجربته في الحكم، على أن فيها جانباً يتطابق مع تجربتنا الراهنة في العراق، فهو واجه تحديات عنيدة لتقويض حكمه من أعداء في الداخل والخارج، بيد إن هذه التحديات والسيوف التي سُلّت عليه، لم تمنعه من أن يكتب للتاريخ والاجيال الشكل النموذجي للدولة المستقيمة وعلاقتها التكاملية مع المجتمع، بحيث يضمن الناس حقوقهم وتستوفي الدولة منهم الواجبات والالتزامات.

## التجربة ملك الجميع

إن الحديث عن السعادة والأمان والرخاء وسيادة القيم الفاضلة والقانون في ظل الاسلام، ليس من قبيل الشعارات الفارغة او النظريات المجردة من المصادقية، إنما هي حقائق خبرتها الاجيال وسجلها التاريخ كجهود ذهبية عاش فيها المسلمون تقدماً حضارياً بمعنى الكلمة، فلا فقر ولا بطالة ولا أمية ولا تبعية، ومن يربط هذه التجربة بأشخاص فاشلين ومصابين بأمراض نفسية، فانه يرتكب خطأ علمياً ويجافي المنطق السليم.

إن القائمين على التجربة الاسلامية في العراق، ربما يشبهون الى حد كبير مستوى الادراك الذي وصلته تلك الفتاة المسلمة في إحدى الدول الاسلامية عندما سألوها القدوة الصالحة في حياتها وما اذا كان يمكن ان تكون الصديقة فاطمة الزهراء، عليها السلام، فسارعت الى الرد بالنفي بأن "الزهراء

تعوم الى فترتها التاريخفة الخاصة بها، أما اليوم فنحن بحاجة الى نموذج عصري جديد مثل الفنانة ..... " وكانت تشير الى بطة مسلسل ياباني شهفر.

إن المشكفة لفسف في هذه الففافة او غيرها من ابناء الجيل الجديد الذي يشكو الففبب في الرؤفة والعجز عن الوصول الى الصورة الصفرفة لما ففهمم وففنقذهم من الازماف والمشاكل التي يعانون لفس في هذا البلد او ذاك، وإنما في عموم البلاد الاسلامفة.

وبما أن الففرة القائمة في العراق ففمفز بفرص الفطور والنجاح اكثر من أف مكان آخر في العالم الاسلامف، فان الشعب العراقي بامكانه اسفشعار الفففر نحو البفدل الحضارف المرطفى على فف النعبة المفففة التي فأخذ على عافها الفففر الحففقى الذي فلفففى ففه الففرفة مع الففبب:

### أولاً: افجاد الففنامفكفة في المجمع

ان بناء المجمع على أساس القفم الصفرفة والعمل الصالح، فعطفه ففنامفكفة في الافجاه الصفر، والعكس فكون صفرافاً ففصافاً، فالمجمع البشري - بالاساس- هو مثل النهر الهافر ففمفك طاقة هائلة، فاذا فم فوففه في الافجاه السلفم وحقرفت له قنواف ملائمة، فحرفت هذه الفافة عبر هذه القنواف وأعطف فماراف طففة.

مفالف ذلك: المجمع الالفمف في مफल القرن العشرين، فقد كان له الففل في ففم الففر البشري والعلوم الحدففة، وكان فففر ففوفة وانففاعاف نحو الفطور الففنى والعلمف، بفف أنه ابفلف بالفوجه القومي الذي أوفمه بأنه الأقوى والاففل في العالم، فبفلاً من مواصلة مسفرة الفطور والففوق العلمف على سائر الفول الاوربفة والعالم بأسره، فحرف في مسفرة الفسلح بأحرف المعداد العسكرية مسفخما العقلفة المبففة في افناب وسائل الفمار والموف، فكان سبباف فف فماره ودمار العالم.

وبالامكان ملاحظفة ومفابفة هذه القفم الصفرفة والبناءة في عهوف اسلامفة ماضفة، وكفف أن المسلمون كانوا فمففلون نماذج مشرفة لسائر شعوب العالم، فكان أهل الصفن والهند وافرفقا

وغيرها من الارجاء، تدخل في دين الله افواجاً، ليس من خلال حملات تبليغية او برامج حكومية معدة لهذا الغرض، وإنما من خلال الصفات والخصال التي كان يحملها التجار والرحالة، وكانت تنساب منهم عفويّاً ويلتقطها الناس في تلك البلاد بكل لهفة وتعطش.

## ثانياً: النظام قبل كل شيء

يؤكد علماؤنا على حقيقة أن الاسلام يرفض الفوضى جملة وتفصيلا، ويدعو الى سيادة القانون والنظام في المجتمع، وأول من بين هذه الحقيقة الامام علي، عليه السلام، بقوله: "لابد للناس من أمير برّ أو فاجر"، فالسلطة والحكم التي يتحدث عنها البعض ممن يطلق عليهم بالاسلاميين، لا يمكن ان تكون على حساب النظام العام، مهما كانت الوعود والشعارات بضرورة إقامة العدل والمساواة والاحتكام الى القيم والمبادئ، فانها تبقى مسائل نظرية لا تلمس ارض الواقع اذا شبت فيه نار الفوضى، فلا يجد الانسان البسيط حقه في العيش بأمان وكرامة.

ولعل القرآن الكريم خير من يؤكد هذه الحقيقة الحضارية الناصعة، عندما يحدثنا عن تجربة النبي موسى، عليه السلام، وكيف أنه خطاب فرعون لهديته وتغيير عقيدته، قبل تغيير نظام حكمه والانقلاب عليه، كما يحصل اليوم، ولذا نلاحظ أن فرعون، مثل أي طاغية آخر حريص على السلطة، فانه سارع الى اتهام النبي موسى بأنه يريد هدم نظامه وإشاعة الفساد والفوضى بين مجتمع بني اسرائيل، وبالامكان مراجعة آيات عديدة في غير سورة مباركة تذكر الحوارات بين فرعون وموسى في هذا الخصوص.

وهذا ينسحب على أي مشروع تغييرى وإصلاحي يُراد منه استبدال وضع فاسد بآخر صالح، فما شبّ عليه قوم من سلوك وعادات ومنهج في الحياة خلال سنوات مديدة، ليس من السهل إلغائه بين ليلة وضحاها، إنما يحتاج الأمر مراحل وخطوات عدة لعل أولها استيعاب عناصر الفساد وتقويم الانحراف بالتي هي أحسن، بعيداً عن اساليب القهر والتنكيل والإقصاء ومصادرة حرية الفكر والتعبير.

وإذا جرت علمية التغيير والإصلاح وفق الاساليب الحضارية، فان الشعب العراقي وأي شعب آخر،

يكون هو بنفسه صاحب المبادرة في مشروع التغيير الذي يريه، عندما يشعر بكل حواسه، بأن القضية تعنيه من البداية الى النهاية.